مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

«حرب المعادن النادرة» ضمن استراتيجية الصعود الصيني الناعم:

كيف ستعيد هندسة حدود الهيمنة على مستقبل الاقتصاد العالمي؟

د. عبد الرزاق غراف

باحث أول

مركز الخليج للأبحاث

ضمن صعودها الناعم تتبنى الصين استراتيجية صامتة قائمة على «الصبر الاستراتيجي» وتصيد الفرص، وعدم اختزال المراحل الذي عادة ما يجلب الضوضاء الناجمة عن تفعيل الأدوات الصلبة. وهذا بالاستناد لآليات غير صدامية على النحو الذي يوفّر للصين تحقيق مكاسبها والتحكم في مستقبل الاقتصاد العالمي بأقل التكاليف ولو كان ذلك خارج اطر المدى المنظور. وضمن جملة الأدوات المستخدمة من طرف الصين لتعزيز نفوذها هو الهيمنة على صناعة التكنولوجيات التي تنتقل فيها الصين تدريجيا من مرحلة التقليد الى مرحلة الابتكار الذاتي المنذر بإعادة رسم حدود الهيمنة الامريكية على مستقبل الاقتصاد العالمي، وفي جوهر مساعي الهيمنة الصينية كان لابد من توفر روافد الهيمنة وهنا بالذات تبرز حيوية «المعادن الارضية النادرة» ضمن استراتيجية الصعود الصيني الناعم كسلاح صامت وهادئ ولكنه قاتل وفتاك في اطار صراعها البارد الذي تخف برودته يوما بعد يوم مع الولايات المتحدة، فبقرابة **٥٠%** الى **٧٠%** من احتياطاتها العالمية (حوالي ٤٤٠ مليون طن ما يوازي تقريبا ٢٣ ضعفا من الاحتياطي الأمريكي)، وبحوالي **٩٠%** من انتاجها العالمي المعالج. تستحوذ الصين بشكل شبه كلي على استخراج ومعالجة المعادن النادرة ضمن عملية بالغة التعقيد تعتبر أساسا في الكثير من الصناعات الالكترونية المدنية منها والعسكرية والطاقات النظيفة، وذلك عبر عملاقها المتربع على عرش أكبر الشركات العالمية في هذا المضمار «شركة الصين الشمالية للموارد الأرضية النادرة العالية التقنية».

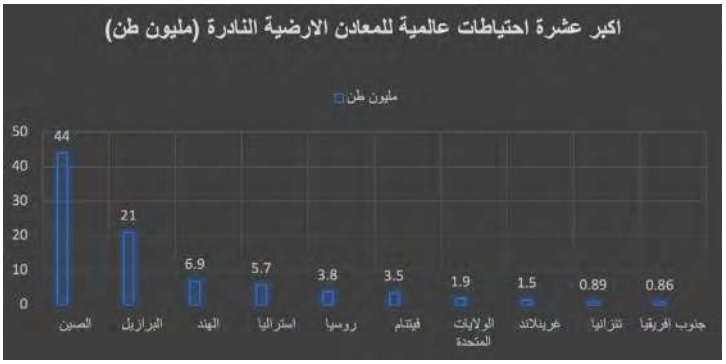

Source: The U.S Geological Survey.

وفي ضوء الحرب التجارية التي بدأتها إدارة دونالد ترامب على الصين منذ عودته للبيت الأبيض، يتضح جلّيا مدى أهمية «المعادن النادرة» في الصراع البارد بين الطرفين، اين منحت هذه الورقة الصين هامشا استراتيجيا ضخما للمناورة، ومرّد ذلك للنفوذ الصيني الهائل في سلاسل الامداد العالمي من هذه المواد فضلا عن أهمية هذه المعادن في أكثر القطاعات الصناعية المعول عليها ان تشكّل مستقبل الكثير من قطاعات الصناعة العالمية كالذكاء الاصطناعي والسيارات الكهربائية وتكنولوجيا الفضاء كالأقمار الصناعية والأنظمة الدفاعي واشباه الموصلات والهواتف الذكية والرقائق الالكترونية وغيرها.

ضمن هذا السياق ولاعتبارات أمنها القومي صعّدت الصين مؤخرا من وتيرة تقييدها الصارم على صادرات سبعة من اهم المعادن النادرة الموجهة بخاصة للسوق الامريكية، عبر إصدارها لقرار ملزم للشركات بالحصول على تراخيص خاصة مسبقة للتصدير بغض النظر عن حجم كمية التصدير، مع التركيز بشكل كبير على تلك التي تدخل في الصناعات العسكرية والتكنولوجية الحساسة، ولم يكتفي التقييد على المواد النادرة بل صاحبه كذلك تقييد آخر لتقنيات وتكنولوجيا استخراج ومعالجة هذه المواد والتي تعتبر الصين رائدة فيها، في حين بررت وزارة التجارة الصينية ذلك بأن بعضا من هذه المواد النادرة قد أسيئ استخدامه بطريقة مباشرة او غير مباشرة بطريقة غير مشروعة خاصة ضمن الصناعات العسكرية لبعض الدول على النحو الذي ألحق الأذى بأمنها القومي، في إشارة ضمنية الى الولايات المتحدة وبعض من الدول الأوروبية التي تعتمد على الصين في تغطية جزء كبير من وارداتها من المعادن النادرة التي تدخل في الكثير من صناعاتها الحساسة وفي مقدمتها الصناعات العسكرية، ولا يوجد ما يستدل به ضمن هذا المضمار بـ F٣٥ الامريكية التي تعتمد بشكل كبير على المعادن النادرة الصينية ضمن ما تحتويه من تقنيات حساسة جعلت منها رمزا للتفوق الاستراتيجي الأمريكي في صناعة المقاتلات الحربية.

في أولى ردود الأفعال اتهم الرئيس الأمريكي الصين بممارسة الابتزاز واصفا القرار الصيني بشأن تقييد صادرات المعادن النادرة بأنه عداء تجاري، كما اعلن ترامب عن العودة لفرض رسوم جمركية بقيمة ١٠٠% على الواردات الصينية تزامنا مع تقييدات إضافية فيما تعلق بصادرات الولايات المتحدة للصين من بعض البرمجيات والتقنيات التكنولوجية الحساسة، ورغم أن البعض يضع الخطوة الصينية ضمن ما هو مألوف في دبلوماسية تخفيض مستوى النزاعات، وما يحدث بين الطرفين الصيني والامريكي ليس بالاستثناء عن هذه القاعدة، حيث لطالما استبق الطرفان أي لقاءات عالية المستوى بخطوات تصعيدية قصد اكتساب أوراق ضغط اكبر قبل جولات التفاوض، وما يحصل الآن يدخل ضمن أولى ارهاصات القمة المرتقبة في كوريا الجنوبية بين الرئيسين الصيني والامريكي.

استراتيجية الصين قائمة ببساطة على ضرب عناصر تفوق الاقتصاد الأمريكي وتحييدها على النحو الذي يجعل من الحمائية والانعزالية التي تبنتها إدارة دونالد ترامب كعقيدة لمستقبل الاقتصاد الأمريكي وتبنتها لاحقا ضمن ما عرف بإعصار ترامب الجمركي هو في الحقيقة ومن منظور استراتيجي امر غير مفيد، ورغم ما حصلته الإدارة الامريكية من مكاسب من إعادة ضبط وهندسة علاقاتها التجارية اتجاه حلفائها ومنافسيها على حد سواء. إلا أنها تبقى مكاسب ظرفية لا تحمل في ثناياها ابعادا استراتيجية طويلة المدى فيما تعلق بحماية روافد استمرار الهيمنة الامريكية من الانكفاء التدريجي السابق للانهيار الحتمي، فلا يكاد يكون هناك خلاف بين المراقبين على ان هذه المكاسب ستعود سلبا على مستقبل الموقع الاستراتيجي الأمريكي العالمي المهيمن الذي بدى في مرحلة ما وكأنه نموذج امبراطوري مستحدث، فضلا على ان تصاعد حرب ترامب الجمركية ستزيد حتما من جموح الصين لتوسيع نفوذها والهيمنة على دائرتها الاستراتيجية القريبة ثم البعيدة وفي مقدمة ذلك إعادة ضم تايوان والهيمنة على بحر الصين والتدرج في فك ترابط بعض دول المنطقة عن المنظومة الامريكية وفي مقدمة ذلك الفلبين فكرويا الجنوبية واليابان.

ومنذ ما عُرف بـ «عيد التحرير» في الثاني من ابريل ٢٠٢٥ كان واضحا ان فعالية عاصفة ترامب الجمركية مرهونة بالاستجابة الفورية للصين للصدمة الامريكية وأن غير هذا السيناريو سيعقّد الأمور اكثر، ففي الأخير فإن استمرار الصراع بشكل متصاعد وعلى مدى أطول هو امر لم تكن الإدارة الامريكية تسعى له ولا حتى الصين لما لذلك من نتائج سلبية على كليهما فضلا على الاقتصاد العالمي غير المستعد لأزمات ولفوضى اكثر من التي هو فيها، خاصة وأن التنبؤات كانت تشير الى ان تصاعد التعريفات الجمركية الامريكية على السلع الصينية الى ١٤٥% مقابل ١٢٥% فرضتها الصين على السلع الامريكية كرد فعل، وفي حال عدم التراجع عنها سيؤدي الى تقلص التجارة الثنائية بين الطرفين الى ٨٠% في حدود السنتين حسب تقديرات «الفورين أفارز» الامريكية.

غير أن المتابع لتطورات الاحداث لاحقا يلاحظ محدودية وقصور الإدارة الامريكية على استشراف حدود رد الفعل الصيني، فالظن السائد لدى الأمريكيين هو أن القيادة الصينية ستسارع الى طلب ابرام صفقة من اجل تجنب أي اهتزاز عنيف في الداخل خاصة وأن معدلات النمو في الاقتصاد الصيني خلال سنة ٢٠٢٤ كان تحت حدود المتوقع، إلا أن العكس ما حصل، فالحزم الذي ابانت عليه القيادة الصينية في الرد السريع وبأوراق لم تكن متوقعة على مقاطعة صفقة «البوينغ الامريكية» ثم التدرّج لاحقا في رفع نسق الصراع وصولا لورقة المعادن النادرة مرورا بفول الصويا الذي ادخل قطاع الزراعة في الولايات المتحدة في ازمة تضخم انتاج خاصة وأن الصين تستورد نصف المحصول الأمريكي من هذه المادة، ورسالة الصين من هذا التدرّج في رفع نسق الصراع هو أنها غير مستعجلة في استخدام ما في جعبتها من أوراق عكس الإدارة الامريكية التي استخدمت استراتيجية الصدمة طمعا في معركة قصيرة بمزايا كبيرة، يُغنيها الدخول صراع مزمن لا ترغب في المبادرة نحوه، وهو ما لم تستجب له الصين التي اتبعت نهجا اكثر هدوءً اثبتت من خلاله للولايات المتحدة أنه لا سبيل إلا النجاة معا أو الغرق معا، وأن الصين مستعدة للقتال الى النهاية في سبيل حماية موقعها، رغم كل المخاوف المشروعة لدى الولايات المتحدة وجل الاقتصاديات الكبرى بأن الزيادة في حجم الصادرات الصينية المنخفضة التكلفة سيعني الزيادة في تآكل القواعد الصناعية لباقي الاقتصاديات التي ستجد نفسها عاجزة عن مسايرة نسق التنافس الذي تفرضه الصين على الجميع، ليبقى الثابت ان الصدمة الامريكية لم تفشل وفقط بل جاءت بنتائج عكسية، فالتعويل على اجبار الصين وبسرعة على الجلوس للمفاوضات وتقديم التنازلات المطلوبة لم يأتي كون الأخيرة أظهرت قدرة قوية على الانتقام توازيا مع انفتاح متدرج وتكتيكي على التفاوض الذي لم يحدث إلا بعد ستة اشهر كاملة من قرار رفع الرسوم وهذا خلال قمة الرئيسين الأمريكي والصيني في سيول الكورية نهاية أكتوبر الجاري.

> **إن موقع الصين الراهن المهيمن على ملف المعادن الأرضية النادرة سيوفر للصين ما تحتاجه من أدوات لإصابة مستقبل الاقتصاد العالمي بالشلل ولو كان جزئيا وبتسلسل المراحل عبر استراتيجية متأنية لا تستعجل المكاسب الحاسمة**

في مقابل ذلك فإن موقع الصين الراهن المهيمن على ملف المعادن الأرضية النادرة سيوفر للصين ما تحتاجه من أدوات لإصابة مستقبل الاقتصاد العالمي بالشلل ولو كان جزئيا وبتسلسل المراحل عبر استراتيجية متأنية لا تستعجل المكاسب الحاسمة، وان كان ذلك لا يتصدر الخطاب الرسمي الراهن للصين المشير بشكل دائم على ان الحرب التجارية لا تخدم مصالح أي طرف، وأن التعاون والدبلوماسية هما افضل السبل لحل الخلافات، إلا أنه لا يوجد ما يشير الى تراجع الصين عن خطواتها المدروسة والاخذ بنصيحة وزير الخزانة الأمريكي «سكون بيسنت» الذي قال بأن على الصين ان تراجع نموذجها الاقتصادي تفاديا للصدام مع الولايات المتحدة، بل ان العكس هو ما حصل في ضوء ما سيفرزه مخطط الصين الخماسي للخمس سنوات القادمة الموقع مناقشته من طرف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني والهادف حسب محللين لجعل الصين قوة إنتاجية عالمية لا يمكن كبح جماحها ومحاصرتها وبخاصة في مجالات الصناعات التقنية التكنولوجية والصناعات الدفاعية والطاقات النظيفة، وهو ما يعني ضمنيا مزيدا من الغزو الصيني للأسواق العالمية التي ستزيد افضليتها توازيا مع تآكل التفوق الصناعي للغرب، خاصة مع ضبابية ما قد تحققه إدارة

ترامب من مكاسب من جهودها لإعادة التصنيع الى داخل السوق الامريكية عبر اجبار كبرى الشركات وكذا الاستثمارات على المجيئ للداخل الأمريكي.

الموقف الأوروبي هو الآخر ابدي حساسية مفرطة من الخطوة الصينية التي رأت فيها عديد الدول الأوروبية انها تهدد التنافسية بين كبرى الشركات، ورغم السعي الأوروبي الدؤوب من اجل ترك فاصل مع الموقف الأمريكي اتجاه الصين، اين تحاول أوروبا النأي بنفسها عن الحرب التجارية الجارية بين الطرفين الا أن الثابت أن لذلك حدود انطلاقا من عاملين رئيسيين: الأول حجم التأثير الأمريكي على الموقف الأوروبي في حال تصاعد احتدام التنافس الأمريكي الصيني وبلوغه مصاف الصراع، والثاني مرتبط بمقدرات أوروبا بذاتها لتكوين ضلع ثالث في النظام الدولي يخولها الاستقلال الكلي عن الطرفين وهو امر غير وارد على المدى المنظور.

دول أخرى ورغم انها نظريا خارج سياق الصراع البارد بين الصين والولايات المتحدة ستجد نفسها حتما وتحت طائلة الاستقطاب الثنائي امام حتمية الاهتمام بما تمتلكه من احتياطات من معادن أرضية نادرة، وفي هذا السياق تبرز دول عربية عديدة على رأسها الجزائر ومصر والمملكة العربية السعودية الذين سيجدون انفسهم وسط دائرة الاهتمام الاستراتيجي بالنظر لما يمتلكونه من احتياطات من معادن أرضية، ومنه فإن استباق هذا السيناريو بوضع استراتيجية ثابتة لكيفية النأي بالنفس عن مثل هكذا استقطاب دولي هو امر تجاوز مرحلة الأهمية نحو مصاف الحيوية.

قمة سيول ورهانات تخفيف التوتر:

رغم ما حملته من زخم إلا أن قمة الرئيسين ترامب وشي في سيول الكورية لم تعالج الاشكال بقدر ما عالجت جزءً من تداعيات الاشكال، فالقمة التي جاءت على هامش الاجتماع الثاني والثلاثين لمنتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ «أبيك» جاءت في ظل مناخ حذر بين الطرفين بعد موجة من القرارات المتصاعدة التي سادت في الأشهر القليلة الماضية، ومنه فإن احتواء الخلاف وتهدئة التوتر وإعادة ضبط حدود التباين كانت الهدف الأول للقمة وليس انهاء الازمة.

وضمن مخرجاتها اتفق الطرفان على تجاوز بعض الخلافات المرتبطة بصادرات الولايات المتحدة من فول الصويا نحو الصين، كما تراجعت الصين عن تجميد صادرات المعادن النادرة للولايات المتحدة في مقابل مبادرة الأمريكيين الى تقليص الرسوم الجمركية بنسبة ١٠%، ورغم حالة كسر الجليد عن بعض من صور الازمة الراهنة، إلا ان عمق الازمة وسيناريوهات العلاقة بين الطرفين على المستوى المنظور والبعيد لا يحمل كبير الدلائل على التحسن، فبين طرف صاعد نحو موضع موازنة الهيمنة وطرف آخر يبتغي الحفاظ على موقعه المهيمن ولا يريد التنازل عنه أو مزاحمة طرف آخر له. وسط هاذين الرهانين يبدوا أن تصاعد التوتر أمر حتمي حتى لو اجلته الظروف الى حين.

ختاما فإن تكاليف الانفصال بين الاقتصاد الأمريكي ونظيره الصيني تبدو باهظة على الجميع بما فيهم الاقتصاد العالمي، فغرق أي من الطرفين كفيل بإغراق كل الأطراف معه، وهو ما أشار إليه وزير الخزانة الأمريكي بتصريحه بأن الولايات المتحدة لا تهدف للانفصال عن الصين وان الصينيين هم الآخرين لا يريدون ذلك، إلا أن القرار الصيني فيما تعلق بتقييد صادرات المعادن الأرضية النادرة هو إشارة من الصين بأنها مستعدة لمرحلة الانفصال، ليبقى الثابت الوحيد الذي يمكن في الوقت الراهن البناء عليه هو أن ما يحصل هو عملية «عض أصابع» الفائز فيها هو الأكثر تحملا وصبرا على الألم، وان كانت النتيجة لن تنتهي بالضرورة الى فوز كلي مقابل هزيمة كلية، إلا أنها ذات النتيجة التي ستكون حاسمة لتحديد طبيعة التوازنات الدولية لعقود قادمة.

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

يعبر هذا المقال عن أفكار وآراء الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

4th Floor
Avenue de
Cortenbergh 89
1000 Brussels
Belgium
grcb@grc.net
+32 2 251 41 64